الملك الظاهر بيبرس (١)

— ٢ —

وكان أولُ ما صنعه بيبرس مكاتبة ملوك الأطراف وأمراء الشام بأمر تسنمه عرش المملكة المصرية . ومن هؤلاء الملوك صاحب حماة الذي بايعه مغتبطاً جذلان . ولم يتخلَّف عن طاعته سوى (الأمير سنجر الحلبي) نائب دمشق فانه حلَّف أمراءها لنفسه . ثم دعا اليه صاحب حماة الملك المنصور فأبى قائلاً : (أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان) . وجعل سنجر يحبّب أهل دمشق بنفسه . وعَرَف منهم حبَّ اللهو فيسر لهم أسبابه . وأمر بتجديد القلعة . فعملوا في بنائها حتى النساءُ أنفسهن ولما كملت زفوها بالمغاني والطبول والبوقات . فكان يوماً مشهوداً . وبلغت فعلته ومروقه من الطاعة بيبرس فاتخذ خطةً حازمة أدت أخيراً الى خضوع سنجر فولى مكانه على دمشق سيده الأول (الأمير ايديكين البندقداري) وأخذ بيبرس يتتبع أخبار أمراء الأطراف الذين يخشى انتقاضهم عليه : فكان يلتقطهم الواحد بعد الآخر : ينكل بهم أو يسجنهم أو يستصفيهم وينعم عليهم . واهتم اشد الاهتمام بأمر الخلافة العباسية التي أسقطها التتار وأراد استثمار هذا الأمر في مصلحته وتثبيت مملكته والتفوّق على مناوئيه من الملوك ولا سيما بني أيوب فهو باحتضانه الخلافة العباسية يصبح هو وحده حاميها والمفوّض من قِبَلها في حماية الاسلام . وصيانة بلاد الاسلام .

وقد بلغه أن التتار بعد أن قتلوا الخليفة المستعصم أطلقوا من في سجنه من أهله . وكان فيهم (ابو القاسم أحمد) الذي لقب (بالمستنصر الثاني) فلجأ الى عرب العراق وجعل يتنسم أخبار بيبرس متشوّقاً اليه . وبيبرس أكثرُ شوقاً

---

(١) القسم الثاني من محاضرة الأستاذ المغربي التي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق بتاريخ ٢١ كانون الأول سنة ١٩٤٥ وقد نشر القسم الأول في العدد السابق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليه . وأشدُّ رغبة فيه . وبقيت الخلافة شاغرةً مدة ثلاث سنوات ونصف حتى وفد المستنصر أخيراً على بيبرس في حماية أمير عرب الفضل (عيسى بن مُهنّا) فركب الملك للقائه وأقيمت المهرجانات في القاهرة عند قدومه . وبويع المستنصر بالخلافة . وكان أول من بايعه قاضي القضاة ثم بايعه بيبرس فالعلماء والأمراء . وبعد ان تمت البيعة للخليفة جاء دور إعلان ملكية بيبرس . فعُقدت لذلك حفلة كبرى . وكان الخليفة أمر بتفصيل خلعةٍ سوداء وبعَمَل طوقٍ من ذهب . وقيدٍ من ذهب . وبكتابة تقليد بالسلطنة . فقُرئ التقليد ، وألبس الخليفة بيبرس الخلعة السوداء بيده ، وطوّق عنقه بالطوق الذهبي ، وقيّد رجليه بالقيد الذهبي . وشقّ القاهرة بموكبه ، والأمراء يمشون بين يديه . فكان يوماً يقصر اللسان عن وصفه .

ولا غرابة في أن يُطوّق الملك بطوق الذهب ، فقد كان ذلك مألوفاً في تزاين الملوك الأقدمين ، وآيين احتفالاتهم ، ولكننا لم نفهم معنى للقيد الذهبي في رجل بيبرس ، فهل كان الغرض منه أن يكون خلخالاً للزينة كالطوق ؟ أو هو رمز الى ان بيبرس سوف يبقى عبداً للخلافة مقيداً بخدمتها ، وأسيراً لفضلها ومنّتها !

وقد جاء في تقليد الخليفة لبيبرس ما نصه : (وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع . ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والشامية والفراتية والحجازية واليمنية ، وما يتجدد من الفتوحات غَوْراً ونجدا . وفوّض أمرها اليك حين أصبحت للمكارم فردا) .

وهكذا انتقل الأمر والنهي من سُلطة العرب إلى سلطة الأعاجم وبقي الخليفة في مصر لا شأن له . وكان أشبه بالسجين لكنه كان يزور أحياناً الأمراء والكتاب والقضاة : يهنئهم بالأعياد ، فالملك الظاهر إنما أعاد الخلافة العباسية لأجل ان يتلقى منها السلطة الشرعية ، ويحتجّ بها على منافسيه ، ثم أهملها حتى قام زميله الأعجمي الآخر (السلطان سليم العثماني) فنقل الخلافة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مصر الى الاستانة وهناك طُمس اسمها ، ومُحي رسمها ، حتى قام السلطان (عبد الحميد الثاني) فحاول إحياءها والاستفادة من قداستها ، فلم يَرُق ذلك لمن بيدهم السيطرة العالمية فاحتالوا على إسقاطها في الاستانة ، ثم أرادت ان تنهض في مكة ولكنهم عادوا فأماتوها في قبرص .

ومنصب الخلافة أيها السادة ثالث ثلاثة محاور تدور عليها جامعة الاسلام ، فان كانت ماتت الخلافة فإن القرآن والكعبة حيان لن يموتا ، بل ان فيهما الكفاية لذوي الألباب .

وحصل في بلاد الشام خلاف بين أمرائها أدّى الى وقائع ومناوشات فاتخذ بيبرس من نزاعهم ذريعةً الى زيارتها ، وهناك شيءٌ آخر قام في نفسه : وهو ان يصطحب الخليفة الجديد ويجهزه الى استرداد بغداد من ايدي التتار فدخل بيبرس دمشق وهو معه .

وهذه أُولى سفرات بيبرس الى الديار الشامية ، وقد بلغت سفراته اليها ست عشرة سفرةً ، ومدة سلطنته ثماني عشرة سنةً ، فيصيب كل سنة وشهرين من أيام سلطنته سفرةٌ واحدةٌ الى الشام . وسنذكر ما جرى له في تلك السفرات ملخصاً تلخيصاً ، أما تفاصيلها فمدوّنة في كتب التاريخ لمن أرادها .

ولما نزل دمشق كان أولُ من جاءه فيها ملك حماة (المنصور) الذي أنِفَ أن يشتريه خوف الشر اللامع في عينيه لكن بيبرس لم يأنف من الحفاوة به والاحسان اليه : فخلع عليه وأعطاه ثمانين ألف درهم ، وهدايا أُخر ، وثبّته في مملكة حماة الى ما شاء الله حتى كان من ذريته المؤرخ (ابو الفدا) ملك حماة ومفخرتها . وأخذ بيبرس في إعداد حملة للخليفة (المستنصر) وتجهيزها بكل وسائل الأُبهة والعظمة ، حتى قيل إنه أنفق عليها أكثر من مليون دينار ، وسار الخليفة وفي ركابه عدة ملوك ، أما بيبرس فلم يصحبه ، ولم يلقِ بنفسه في الأتون : ذلك أن الخليفة لما دخل العراق انقاد اليه بعضُ مدنها ، واستعصى عليه بعضها ، وصَمَد اليه (قرابوغا) عظيم التتار بجنوده وذلك سنة (٦٦٠ هـ) ولم يكن مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخليفة من الجنود الا التركمان وجماعة من العربان . وتسلّل من رافقه من الملوك ، فلم يشهدوا الوقعة معتذرين بقولهم (ما معنا مرسوم بذلك) يعنون من بيبرس فهل كان هذا التدبير من مكايد بيبرس للتخلص من الخليفة الأسود اللون والمشكوك في نسبته الى بني العباس ، فورطه في هذه الفتنة التتارية حتى غَرِق فيها . ولم يظهر له أثر بعدها ؟ وهذا ما حدث : فان المستنصر لما التقى بالتتار أحاطوا به فنجا بعض أمرائه ومنهم أمير عرب الفضل (ابن مُهنا) وقُتل بعضهم . أما هو فلم يوقف له على خبر : قيل قُتل ، وقيل نجا مجروحًا ومات في منازل العربان ، وقيل سلم وأضمرته البلاد ، وهكذا تمّ ما أراده بيبرس وتخلص من الخليفة بعد أن أصبح ملكاً شرعياً ببايعته له .

ولعلّ بيبرس لم يرد هذا وانما اراد بهذه الحملة أن يَعْجُمَ عود التتار ومبلغَ قوتهم ، ولم يشأ أن يغامر بنفسه وهو بعدُ في السنة الثالثة من ملكه ، فلم تتوفر لديه القوة ولا أسبابها من عتادٍ وسلاح ، ولم يطمئن بعدُ الى من حوله من الأمراء الطامعين في الملك : فان بعضهم ما زال يراوغ ويُضمر السوء ، وينزو هنا وهناك نزوان الثعالب . ومنهم الأمير (آقوش البرونلي) الذي أراد أن يستبدّ بحلب ثم عاد فخضع .

ورجع الملك الظاهر الى مصر من دون أن يكون معه خليفة ، غير أن مصر اصبحت مطمح أنظار الطامعين بالخلافة من آل العباس فقصدها منهم (الحاكم بأمر الله) فاحتفى به بيبرس وعقد مجلساً لمبايعته فبويع لكنه رَسَمَ عليه أن يبقى في القلعة شبه سجين .

وفي سنة (٦٦٣ هـ) كثرت الشكاوي على قاضي مصر (ابن بنت الأعزّ) ونسبوا اليه التراخي في الأحكام فرأى الملك أن يجعل القضاة أربعة : لكل مذهبٍ قاضٍ في مصر وفي دمشق أيضاً ، واتفق ان كان من قضاة دمشق ثلاثة ، كلٌّ منهم كان يلقب بشمس الدين : شمس الدين بن خَلِّكان الشافعي . وشمس الدين الأذرعي الحنفي ، وشمس الدين بن أبي عمر الحنبلي . فقامت دمشق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تشكو وتقول : ما الفائدة من هذه الشموس . وظلام الجور مخيِّمٌ فوق الرؤوس ،
وقال شاعرهم : بدمشقٍ آيةٌ قد ظهرت للناس عاما
كلما ازدادوا شموساً زادت الدنيا ظلاما

وكان التحاسد والتنازع حول الوظائف الدينية بالغاً مبلغه في ذلك العهد : من ذلك ما ذكره (ابن أبي عُذيبه) في تاريخه : ان التتار لما وصلوا الى حمص جمع الشيخ (محي الدين بن الذكي) صدرُ دمشق في ذلك العهد علماءَها ، وأهل المناصب فيها وأشار عليهم أن يهيئوا هدية سنية يتوجه بها الى حمص ويقدمها الى ملك التتار باسم مدينة دمشق ملتمساً منه عدم التعرض لها بسوء ، فاستحسنوا رأيه ، وأخذ الهدية وقدمها اليه فقبلها شاكراً وولاّه قضاء الشام . فكبر الأمر على منافسيه من علمائها ، فجازوه على حسن صنيعه : بأن أرسلوا الى (الملك الظاهر) يقولون : ان الشيخ الذكي اقتطع لنفسه من الهدية قسماً كبيراً وطلبوا محاسبته ، فاستدعاه الملك الى مصر وسأله عن القضية فشرحها له ، ولما تبين صدقه نَفِسَ به أن يعيش في دمشق بين أُولئك الحسدة فأبقاه لديه في مصر .

ولما استقرت الحالة الداخلية في المملكة أخذ الظاهر يفكر في الحالة الخارجية وكان يهمه في الأكثر تطهير البلاد من الصليبيين ، فخرج من مصر الى الشام وهي سفرته الثانية وذلك سنة ٦٦٤ هـ ونزل عين جات قرب نابلس ، ومنها بثَّ جنوده فأغاروا على عكا وصور وطرابلس فسبوا وغنموا . ثم نهض هو الى صفد فامتنعت عليه الا أن يحلف لهم هو نفسه على شروط الصلح ، وكان في صدره حزازةٌ عليهم فمكر بهم مكراً حاسبه عليه التاريخ ، ولامه ميور الانكليزي بسببه أشد اللوم : ذلك أنه أجلس على كرسيه أحد أمرائه (كرمون آغا التتاري) فحلف كرمون آغا لرسل صفد وهم يظنونه الملك الظاهر لشدة شبهه به . وتسلم الملك القلعة ، وبلغه ان أهلها أخذوا بعض ما له قيمةٌ من التحف وكانوا تعهدوا أن لا يفعلوا . فأمر بضرب رقابهم ، ورجع الى مصر وكان أمر بعمارة جسر على نهر الشريعة فظهر خلل في بعض أركانه وتعذّر إصلاحه بسبب طغيان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

المياه فقلق الملك واتفق ان وقعت قطعة من الجبال على المجاري فانقطع الماء فأصلحوا الجسر وعادت المياه الى مجاريها . وعُدّ هذا من حسن طالع الملك ، ثم رجع بيبرس الى الشام لمناجزة الصليبيين في ٧ جمادى الآخرة سنة ٦٦٥ فاستولى على انطاكية في ٤ رمضان : ففي خلال الثلاثة الأشهر إلا أياماً اجتاز بيبرس قفار صحراء مصر وطور سينا حتى بلغ يافا ففتحها وفتح بعدها شقيف أرنون واكتسح أرباض طرابلس وحصن الأكراد ومرّ بحمص وحماة وأفاميا حتى انطاكية ففتحها : معاقل حصينة ، وعدوٌّ جبار مسلّح ، ومسافات طويلة تبلغ زهاء الف كيلو متر ، ولا سكك حديد ، ولا سيارات نقل ، ولا طيارات ، ولا بخار ، ولا كهرباء ، ولا تلفونات . أليس كل هذا من خوارق هم جارنا الملك الظاهر ، وشدة مضائه ، وعجيب عزائمه ! وماذا كان شأن بيبرس في الشام بعد هذا الفتح ؟ كان شأنه في الشام كما كان شأنه في مصر : قلق واضطراب وحذر وسوء ظن يجعله لا يستقر على حال ، ولا يهدأ له بال . كان وهو في مصر يفكّر في حال أمراء بلاد الشام وملوكها : أهم باقون على ولائه مستمسكون بطاعته ؟ يفكر في بقايا الصليبيين أما حان جَلاؤهم عن البلاد ؟ وهناك أرمن وتتار على الحدود في الشمال والشرق ما فتئوا يعيثون ويتربصون الدوائر بالبلاد — كل ذلك كان يزعجه فيُعَجِّل من مصر الى الشام فيعمل ما سمعتم نموذجاً منه آنفاً . حتى اذا استقر في الشام أخذ يفكر في مصر وأمرائها : أباقون هم على طاعته والنصح له والالتفاف حول وليّ عهده وضجيعه في قبره (الملك السعيد) فيهبُّ من فوره ويسرع الى مصر . وهكذا قضى سِني ملكه يراوح بين الرحلتين . ويتنزّى تنزّيَ النمر بين القطرين .

اكتسح الشام وفتح انطاكية وعيّد في دمشق . وعاد الى مصر فدخلها في ١١ ذي الحجة سنة ٦٦٥ ورأى ان يحتفل بولاية العهد لابنه السعيد ففعل وأخذ القضاة يحلّفون الأمراء على بَيعته وامحاض النصح في خدمته . وخرج الموكب من القلعة بأبهة السلطنة والظاهر بيبرس ماشٍ على قدميه أمام ابنه ، وولي عهده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كل ذلك زيادة في تمكين السلطان له ، وتقريره في نفوس الأمراء : فلا تحدثهم أنفسهم بالانتقاض عليه ، واختلى به يوماً فقال له : (إنك صبيّ وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبيّ فمن بلغك عنه ما يشوّش عليك ملكك وتحققت ذلك منه فاضرب عنقه ، ولا تستشر أحداً فيه ، وافعل ما أمرتك به وإلاّ ضاعت مصلحتك) .

ولما هدأ باله من جهة ابنه سافر الى الشام لمقابلة رسل التتار فأنزلهم في القلعة واستقبلهم فيها وأدّوا رسالة ملكهم (ابغا بن هولاكو) ومما قال له فيها : (وأنت لو صعدت الى السماء أو هبطت الى الأرض ما تخلص منا . فالمصلحة ان تجعل بيننا صلحاً . وإنما أنت مملوك أُبِعتَ في سيواس (اي عُرضت للبيع فيها) فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها ؟)

فوسّع الملك الظاهر صدره لهذا التهديد والتعيير ، وصرف الرسل برسالة ملخصها : إنه عامل على استرداد ما بأيديهم من بلاد الاسلام وسيرون .

ثم تسلّل بيبرس عائداً الى القاهرة خفيةً ، والناس في دمشق يظنونه مريضاً : تغدو الأطباء عليه وتروح .

ويُفهم من كلام المؤرخ (ابن تغري بردي) ان بيبرس غادر بلاد الشام في ١٨ شعبان وعاد اليها في ٢٩ منه ، فكانت مدة غيابه احد عشر يوماً : منها أربعة أيام أقامها بمصر والباقي سبعةُ أيام للذهاب والإياب . أليست هذه السرعة في قطع المسافات من مواضع العجب إن لم تكن من مواضع الشك في صدق الخبر وضبط الأرقام ؟ اللهم الا اذا ادّعى مدع بأن بيبرس كان يمتطي خيل البريد المهيأة له في المنازل وهو منذ حداثته في بلاده اعتاد ركوب الأفراس والطراد عليها ، وكأن شربه حليبها . أورثه صبرها ودؤوبها . وجعل اعصابه من أعصابها ، ووثوب الفهد ليس من العجيب . وقديماً قالوا لكل مسمى من اسمه نصيب .

وكان غرضه من تعجيل الزيارة لمصر الوقوفَ على أحوال ولده وحسن قيامه بأعباء الملك واخلاص الأمراء له والاطمئنان الى خلو الجو من الدسائس والمؤامرات ؟ كل هذا كان يخافه الظاهر بيبرس لأنه درس طبيعة ذلك العصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأخلاق أهله منذ حداثته : فهو يعرف ان الابن أحياناً يخون أباه وبالعكس ، والخشداش [1] يخامر على خشداشه ويسلمه الى الهلكة . فلا تعجبوا أيها السادة من سوء ظن جارنا الملك الظاهر وشدة حذره .

وفي سفرته هذه الى الشام شخص منها الى الحجاز فأدى الفريضة وزار المدينة المنورة فهرب منها المتغلب عليها (جماز بن شيحة) من امراء عرب الفضل . فعجب بيبرس لهروبه . قال : ولو ظفرت به لما قتلته لأنه في حرم النبي ﷺ . ورجع الى مكة فطاف وسعى وصعد الكعبة وغسلها بيده بماء الورد وعاد الى الشام فمصر فأغدق الهدايا والخلع والمال على أمرائه ، ثم عاد الى الشام وهذه هي السفرة السادسة من سفراته ، وأريحوني أيها السادة من تعيين مقدار الأيام التي كان يمكثها هنا وهناك وفي الطريق فقد عرفتم نماذجها مما مر . وأنا أشعر أنكم مذ تتصورون قلقلة الظاهر ركابه في سفراته . ونشاطه في غدواته وروحاته تقارنون بينها وبين سكونه الأبدي في هذه الحفرة الضيقة التي وصفها سيدنا علي فقال : (لو زيد في فسحتها ، وأوسعت يدا حافرها ، لأضغطها الحجر والمدر ، ولسد فرجها التراب المتراكم) .

وقد أمر بيبرس وهو في الشام ابن اخت ملك عكا ، وبلغه ان مراكب الافرنج دخلت ميناء الاسكندرية واستولت على مركبين للمسلمين فهب مسرعاً الى مصر ، وبلغه هناك ان مراكب الافرنج عادت فنهبت ميناء الاسكندرية فأمر بتقوية وسائل الدفاع عنها : من ذلك أن تقتل كلابها ، وتغلق حوانيتها ليلاً وان لا يوقد فيها نار ليلاً . ونهض الى الشام . وهذه هي سفرته السابعة فمر بعسقلان فهدم سورها فوجد تحته كوزين فيهما ألفا دينار ذهباً ففرقها على أصحابه . ولم يصل هذه المرة الى دمشق بل عاد الى مصر ثم لم يلبث أن عاد

---

(١) الخشداش كلمة تركية شاع استعمالها بين مماليك ذلك العهد ، وكان الواحد منهم يطلقها على مملوك آخر توثقت بينهما أواصر الود مذ كانا مملوكين لسيد واحد ، وجعلها بعضهم مرادفة لكلمة Camarade الافرنسية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى الشام فدوّخ وفتح وأسر من الصليبيين حتى التى عصا التسيار أخيراً على (حصن الأكراد) المعقل المنيع المشهور بين حمص وطرابلس فهدم أسواره واستولى عليه . وعلى البلاد التي حواليه .

ثم قصد طرابلس وشدّد الحصار عليها . وفي آخر الأمر هادن صاحبها (بيموند) على شروط : ومن تلك الشروط أن تكون عَرْقة وقُراها (وهي ست وخمسون قرية) صدقة من بيبرس على البرنس ، وهذه احدى دُعابات جارنا الملك . فأنف البرنس (بيموند) وتوقّف عن توقيع الاتفاقية وأبى بيبرس إلا إبقاء هذا الشرط بهذا التعبير . وفي آخر الأمر وقع البرنس الاتفاقية مكرهاً .

وعاد الظاهر الى مصر بعد أن أنفق في هذه السفرة على عسكره ثمانمائة الف دينار . وكان بلغه أن طائفةً من الأمراء تآمروا عليه وهو ما كان يخشاه ويقلق راحته فقبض عليهم وسجنهم في القلعة .

وبلغه ان صاحب قبرص جاء الى عكا فاغتنم بيبرس فرصةَ غيابه وأرسل الى قبرص حملةً بحرية فعصفت بها الرياح وتحطم من شوانيها (أي سفنها) أحد عشر من سبعة عشر شونياً . وأُخذ من فيها أسرى ، وكانوا ألفاً وثمانمائة . فعظم ذلك على الملك وأمر بمنع الخمور فأريقت . وكان التزامها ألف دينار كل يوم .

(لها بقية) المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net